

دلائل الإعجاز

على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (قوله تعالى : (لا يؤمنون) تأكيد لقوله : (سواء علايتهم أأنذرتهم أم لم لم تأنذرتهم) وقوله : (ختم) على قلوبهم وعلى سمعهم) تأكيد ثانٍ أبلغ من الأول لأنَّ مَنْ كان حاله إذا أنذرت مثل حاله إذا لم يُنذَر كان في غاية الجهل وكان مطبوعاً على فلايته لا محالة . وكذلك قوله عز وجل : (ومن الناس من يقول آمنا بالله باليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله) إنما قال (يخادعون) ولم يقل : ويخادعون لأن هذه المخادعة ليست شيئاً غير قولهم : آمنا من غير أن يكونوا مؤمنين . فهو إذاً كلام أكَّد به كلام آخر هو في معناه وليس شيئاً سواه وهكذا قوله عز وجل : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلاوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنا زعمنا زحون مستهزون) وذلك لأنَّ معنى قولهم : إنا معكم إنا لم نؤمن بالنبى ولم نترك اليهودية وقولهم : (إنما نحن مستهزون) خبر بهذا المعنى بعينه لأنَّه لا فرق بين أن يقولوا : إنا لم نقل ما قلناه من أننا آمنا إلا استهزاء . وبين أن يقولوا : إنا لم نخرج من دينكم وإننا معكم . بل هما في حكم الشيء الواحد . فصار كأنهم قالوا : إنا معكم لم نفارقكم . فكما لا يكون إنا لم نفارقكم شيئاً غير أننا معكم كذلك لا يكون إنما نحن مستهزون غير فاعرفه .

ومن الواضح البين في هذا المعنى قوله تعالى : (وإذا تلى آياته) ولَّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراءاً) لم يأت معطوفاً نحو وكأن في أذنيه وقراءاً لأنَّ المقصود من التشبيه بمن في أذنيه وقراءاً هو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع إلا أن الثاني أبلغ وأكَّد في الذي أُريد . وذلك أنَّ المعنى في التشبيه جميعاً أن ينفى أن يكون لتلاوة ما تلى عليه من الآيات فائدة معه ويكون لها تأثير فيه وأن يجعل حاله إذا تلى عليه كحالته إذا لم تلى . ولا شبهة في أن التشبيه بمن في أذنيه وقراءاً أبلغ وأكَّد في جعله كذلك من حيث كان من لا يصح منه السمع - وإن اراد ذلك أبعد من أن يكون لتلاوة ما يلى عليه